حياة الحيوان الكبرى للدميرى

بقلم
الدكتور محمد رشاد الطوبى
الأستاذ بكلية العلوم بجامعة القاهرة

مقدمة

لقد كانت الأمة العربية من أوائل الأمم التى ضربت بسهم وافر فى مختلف ألوان المعرفة البشرية ، فكانت كتابات أبنائها فى العلم والأدب والدين والفن من أروع الكتابات التى سجلها التاريخ ، وكانت لهم فى مختلف أنواع العلوم كالرياضيات والفلك والطب والكيمياء والنبات والحيوان جولات صادقة تتضح أصالتها من مخلفاتهم العلمية العديدة التى تزدان بها مكتبات الشرق والغرب ، والواقع أن التراث العلمى العربى سواء كان فى صورة مطبوعات أو مخطوطات يحتاج إلى كثير من الدراسة والتعليق إحقاقاً للحق ودحضاً لافتراءات المغرضين الذين ينكرون على العرب دورهم الكبير فى تقدم الحضارة الإنسانية .

ونحن إذ نقدم اليوم بعضاً من هذا التراث العلمى ممثلا فى كتاب « حياة الحيوان الكبرى » إنما نظهر فى وضوح وجلاء أن الكتاب العرب لم يتركوا باباً من أبواب المعرفة دون أن يطرقوه فى قوة وعزم ، فقد كتب هذا المؤلف الضخم الذى يقع فى جزءين يحتويان على ٦٩٦ صفحة منذ ستة قرون مضت من الزمان ، وهو تاريخ لم يكن فيه لعلم الحيوان وجود ، وقد طبع لأول مرة عام ١٢٧٥ هجرية فى مطبعة بولاق بالقاهرة ، كما ترجم إلى عدد من اللغات الأوروبية .

أما مؤلفه « كمال الدين الدميرى » فقد ولد فى مصر عام ٧٥٠ هجرية (١٣٤٩ ميلادية) وتوفى عام ٨٠٨ هجرية (١٤٠٥ ميلادية) ، وسمى الدميرى نسبة إلى « الدميرة » وهى إحدى القرى المصرية ، وقد تلقى علومه الدينية فى الأزهر واستمر مثابراً على القراءة والبحث والتحصيل حتى أصبح من أئمة العلماء فى هذه الجامعة العتيدة ، وكان الدميرى على جانب كبير من العلم والمعرفة ، إذ يعتبر كتابه الخالد « حياة الحيوان الكبرى » مزيجاً طريفاً منقطع النظير من العلم والأدب والتاريخ والفقه والحديث والقصص ، كما أن الاستدلالات الكثيرة التى لا تخلو منها صفحة من صفحات الكتاب تدل بما لا يدع مجالا للشك على كثرة بحوثه وسعة اطلاعه ، وعلى أنه كان حجة فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية .

ترتيب الكتاب

لقد قام الدميرى بترتيب الحيوانات التى تناولها فى كتابه بالشرح والإيضاح ترتيباً أبجدياً على طريقة

المعاجم ، فكان الأسد وهو ملك الغاب أولها فى حرف الألف واليعسوب وهو ملك النحل[1] آخرها فى حرف الياء ، وبين هذا وذاك تتوالى الحيوانات واحداً بعد الآخر فى ترتيب أبجدى يجعل مهمة القارئ سهلة ميسورة عندما يرغب فى البحث والاطلاع ، والواقع أن الدميرى كتب لكل واحد من هذه الحيوانات مادة مستقلة تحتوى على جميع المعلومات التى تتعلق به والتى كانت شائعة فى ذلك الوقت ، وتصل المواد فى مجموعها إلى ١٠٦٩ مادة ، وليست جميع هذه المواد على درجة واحدة من الإيضاح والتفصيل ، فالبعض منها وهو ما يتعلق بالحيوانات المشهورة المألوفة يصل إلى عـــدة صفحات ، بينما لا يزيد ما كتب عن الحيوانات الغريبة أو المشكوك فيها عن سطر أو سطرين ، فقد كتب الدميرى مثلا عن الأسد ١١ صفحة وعن الذئب ٦ صفحات وعن الجمل ٥ صفحات ، بينما لم يتجاوز ما كتبه عن (العومة) أو (الشران) سطراً واحداً ، فقد وصف الشران مثلا بأنه « شبيه بالبعوض يغشى وجوه الناس » ، انتهى .

ولو قمنا بتحليل هذه المقالات التى تزيد عن الألف تحليلا أكاديمياً لوجدنا أن الحيوانات التى يحتوى عليها الكتاب أقل من هذا العدد بكثير ، ويرجع ذلك إلى أربعة أسباب وهى :

أولا : وجود كثير من المترادفات لأسماء بعض الأنواع كالأسد والذئب وغيرهما . فللأسد مثلا خمسمائة اسم وصفة عند العرب ، ولم يفرد الدميرى بطبيعة الحال مادة واحدة لكل من هذه الأسماء بل انتقى منها أشهرها وأعمها ، فتكلم فى مواد مختلفة عن الأسد والسبع والليث والضرغام والغضب والغضوف ، كما تكلم عن الذئب فى مواد مختلفة لأشهر أسمائه المترادفة كالغطلس والعساس والخاطف والأوس والسرحان والأطلس والعملس ، وللجمل عند الإعرابى منزلة خاصة فهو رفيقه فى الأسفار الطويلة خلال مجاهل الصحراء ومسالكها ، كما يغتذى بألبانه ولحومه ويتدثر بصوفه وينتعل بجلده ، ولذلك فقد عالجه الدميرى فى أكثر من مادة منها الجمل والإبل والبخت والعيس والبعير .

ثانياً : وجود أسماء مختلفة لكل من الذكر أو الأنثى فى النوع الواحد . ففى بعض الأسماء كالأرنب والعقاب يستخدم الاسم لكل من الذكر والأنثى على السواء ويكون التميز بينهما باسم الإشارة فنقول هذا الأرنب وهذه الأرنب أو هذا العقاب وهذه العقاب وهكذا ، والكثير الأعم هو استخدام نفس الاسم لكل من الذكر والأنثى بعد إضافة تاء التأنيث للتمييز بينهما مثل فهد وفهدة وصقر وصقرة وثعلب وثعلبة وضفدع وضفدعة . . الخ . ويكون الكلام فى مثل هذه الحالات السابقة تحت مادة واحدة لكل حيوان واحد تشمل الذكر والأنثى معاً . ولكن هناك حالات أخرى ينفرد فيها الذكر أو الأنثى باسم خاص قاصر عليه ، ومثال ذلك « الظليم » وهو ذكر النعام و « الديك » ذكر الدجاج و « الذيخ » ذكر الضباع و « البخاق » هو الذئب الذكر ، وكذلك تطلق « الناقة » على أنثى الإبل و « العيساء » على أنثى الجراد و « اللبوءة » على أنثى الأسد ، ويحتوى معجم الدميرى عندئذ على مادتين منفصلتين إحداهما للأنثى والأخرى للذكر ، فيزيد بذلك عدد الحيوانات التى يتناولها الكتاب زيادة مفتعلة مما لا يشاهد فى المراجع الحديثة لعلم الحيوان ، ففى هذه المراجع يكون الوصف للنوع مع توضيح الفوارق التشريحية أو الطبائعية بين كل من الشقين (الذكر والأنثى) . ولعل للدميرى عذره الواضح فى اتباع هذا الأسلوب نظراً لأنه قام بترتيب مادته العلمية على طريقة المعاجم فى زمن لم يكن فيه لعلم التصنيف أى وجود على الاطلاق .

ثالثاً : وجود أسماء خاصة بالأبناء تختلف عن أسماء الآباء . فمن المألوف أيضاً أن تكون هناك أسماء خاصة

(١) كان الأقدمون جميعاً يظنون أن للنحل ملكاً لا ملكة كما هو معروف فى الوقت الحاضر .

بصغار الحيوانات ومنها على سبيل المثال « الشبل » وهو ولد الأسد و « الغطريف » فرخ البازى و « الثلج » فرخ العقاب و « الغضيض » ولد البقرة الوحشية و « الفصيل » ولد الناقة و « الحسل » ولد الضب ، ولذلك كانت كنيته « أبو حسل » ، والضب حيوان مشهور فى بلاد العرب حيث يستطيبون أكله، وهو من الزواحف التى تعيش فى الصحراء ، كالورل والحرذون وغيرهما ، ولكنه يختلف عن جميع الزواحف الأخرى فى أنه لا يتغذى إلا على الأعشاب ، وهو يباع هناك فى فى الأسواق كما تباع الدواجن والأغنام ، وفيه قيل المثل العربى المشهور « أعقد من ذنب الضب » نظراً لأن فى ذيله عقداً كثيرة .

رابعاً : وجود اختلاف فى التسمية بين بلد وآخر . ومثال ذلك أن الطيور البحرية التى تعيش بالقرب من شواطئ البحار ويطلق عليها فى مصر اسم « النورس » تسمى « زمج الماء » فى بلاد العرب ، كما أن « البعوض » فى مصر وبلاد العرب يطلق عليه اسم « القرقس » فى العراق والشام ، وما يعرف فى مصر باسم « البجع » يقال له « الحوصل » فى بلاد العرب وهكذا . وقد كتب الدميرى مادة مستقلة لكل اسم من هذه الأسماء تعميما للفائدة .

طريقة الوصف

كانت معالجة الدميرى للمواد التى يحتوى عليها الكتاب فريدة فى نوعها ، وكانت تسير فى معظم الحالات على وتيرة واحدة منظمة وخصوصاً فى تلك المواد التى كتب عنها بالتفصيل ، فاذا استعرضنا واحدة من هذه المواد النموذجية المطولة لوجدنا أنها تبدأ عادة بالتعريف باسم الحيوان وكيفية اشتقاق هذا الاسم ، ثم استعراض للمفرد والجمع فى مختلف صوره وكذلك المذكر والمؤنث والمترادفات إن وجدت ، ويأتى بعد ذلك وصف الحيوان من حيث الشكل واللون والحجم وكذلك المميزات الواضحة التى ينفرد بها عن بقية الأنواع ، ثم يتطرق بعد ذلك إلى ذكر العادات والصفات والطبائع وخصوصاً ما يتعلق منها بالغذاء أو السلوك أو التكاثر ، وكذلك الأماكن التى يعيش فيها أو يتردد عليها والأوقات التى يخرج فيها من مخابئه فى ظلام الليل أو فى وضح النهار ، ولا يفوته ذكر السلالات المختلفة إن وجدت .

ويأتى بعد ذلك بحث طريف عن شرعية قتل هذا الحيوان (إن كان من الحيوانات المؤذية) أو تحريم هذا القتل ، وكذلك تحليل تناوله كمادة غذائية أو تحريم هذا التناول ، وكل ذلك مدعم بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو أقوال الأئمة والفقهاء ، وتحتوى المادة عادة على كثير من الأشعار التى تتعلق بهذا الحيوان أو القصص التى تروى عنه أو الأمثال التى قيلت فيه .

وتختتم المادة عادة بذكر الفوائد الطبية التى تتعلق بالحيوان نفسه أو ببعض الأجزاء فيه ، فقد كان الأقدمون جميعاً يعتقدون فى مثل هذه الوصفات التى تستمد من مختلف أنواع النبات والحيوان ، وتحتوى الكتب الطبية القديمة — الأوروبية منها أو العربية — على مئات من هذه الوصفات التى كانت تستخدم فى علاج معظم الأمراض . وكثيراً ما كانت المادة تنتهى بعد ذلك بتفسير الأحلام التى يشاهد الإنسان خلالها بعض هذه الحيوانات حيث يختلف التفسير تبعاً للطريقة التى يشاهد بها فى المنام .

ويحتوى الكتاب كما ذكرنا سابقاً على عدة مئات من مختلف أنواع الحيوانات التى رتبت ترتيباً أبجدياً مما ييسر على القارئ طريق البحث والاطلاع ، ولكن لا يسعنا عند استعراض هذا العدد الكبير من الحيوانات إلا أن نتبع الطريقة التصنيفية الحديثة التى تلزمنا بوضعها فى مجموعات متشابهة متناسقة ، وتنقسم الحيوانات على اختلاف أنواعها طبقاً لهذا التصنيف إلى قسمين رئيسيين وهما :

١ ـ الحيوانات الفقارية (الفقاريات) وهى التى يوجد فى ظهر كل منها عمود فقارى يتركب من عدد من الفقارات ، ويحتوى هذا القسم على معظم الحيوانات ذات الصلة الوثيقة بالإنسان ، وأهم أقسامه الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات .

٢ ـ الحيوانات اللافقارية (اللافقاريات) وهى التى لا تحتوى أجسامها على أعمدة فقارية بل يوجد لكل منها عادة نوع أو آخر من الهياكل الصلبة للمحافظة على أنسجتها الجسدية اللينة . وهى تنقسم بدورها إلى عدة أقسام نذكر منها الأسفنجيات والجوفمعويات (ومنها المرجانيات) والديدان المفلطحة والديدان الأسطوانية والديدان الحلقية والمفصليات (ومنها الحشرات وغيرها) والرخويات (ومنها القواقع والأصداف) والجلد شوكيات (ومنها نجوم البحر وغيرها) .

الحيوانات الفقارية

كان الأقدمون جميعاً أكثر معرفة بهذه الحيوانات من غيرها ، وذلك لأنها كبيرة الحجم فى معظم الحالات كما أنها أكثر اتصالا بالإنسان فى حياته اليومية ، ولهذا السبب نرى أن الدميرى لم يشذ عن بقية المؤلفين القدماء من هذه الناحية ، فهو يخصص الجزء الأكبر من كتابه لهذه الحيوانات التى عرف عنها الإنسان الشىء الكثير نسبياً فى مثل هذا الزمن القديم ، ولم تعالج الحيوانات الفقارية نفسها على نمط واحد من حيث الكثرة أو القلة وكذلك من حيث الإفاضة أو الاختصار ، فالطيور والثدييات التى يحتوى عليها الكتاب أكثر عدداً من الأسماك والبرمائيات والزواحف ، كما أن المواد التى كتبت عنها أكثر عمقاً وأدق فى تفصيلاتها مما كتب عن غيرها من الفقاريات ، وتلك أيضاً ظاهرة أخرى فى معظم المؤلفات القديمة التى كانت تعطى للطيور والثدييات الأهمية القصوى بين مختلف أنواع الحيوان .

وقد وصف الدميرى أنواعاً كثيرة من الأسماك التى تعيش فى الأنهار أو فى البحار ، ولكنه بطبيعة الحال لم يفرق بين الأسماك الغضروفية والعظمية ، وهو ما لم يكن معروفاً فى ذلك الوقت ، ومن الأسماك التى وصفها القرش والكوسج والمنشار والمنارة والبطس والانكليس (ثعبان السمك) والشبوط والصير والقوق والخرشقلا (البلطى) والخطاف (السمك الطائر) ، ولكن فى عديد من الحالات لم يتعد الوصف بضع كلمات لا تؤدى إلى التعرف على هذه الأسماك ، ومثال ذلك :

البياح : ضرب من السمك .
الجواف : ضرب من السمك وليس من جيده .
الحساس : جنس من السمك صغار وهو الهف .
الشيم : ضرب من السمك .
الحمل : ضرب من السمك .

وبالكتاب نقص واضح فى البرمائيات فلم يتناول منها سوى الضفدع والعلجوم (ذكر الضفادع) والشفدع (الضفدع الصغير) .

ولكنه على العكس من ذلك يحتوى على كثير من الزواحف التى تنتمى إلى مختلف أقسامها الرئيسية المعاصرة ومنها التمساح والسلحفاة البرية والبحرية والسحالى مثل الضب والحرباء والسقنقور والحرذون والورل والوزغة (البرص) والثعابين ومنها الحريش والأربد والأرقم والأصلة والحارية والدساسة والأفعى (الحية)

وتحتل الطيور منزلة ممتازة فى معجم الدميرى ، ولا عجب فى ذلك فقد ألفها الناس منذ قديم الزمن ، فاستأنسوا البعض منها لاتخاذه غذاء لهم أو لاستخدامه فى أغراض الزينة والتسلية ، وكان العرب من أسبق الأمم التى اهتمت بدراسة الطيور وملاحظتها والتعرف على خصالها وطبائعها ، ولذلك نجد لها كثيراً من الذكر فى مخطوطاتهم وأشعارهم ، وقد استعرض الدميرى كل ما عرفه العرب عن الطيور المنزلية أو البرية استعراضاً

شائقاً . ولما كان من غير المستطاع أن نقدم هنا قائمة كاملة بهذه الطيور فاننا نقدم فى هذا المجال أهم هذه الطيور وأكثرها شيوعاً ، وتلك هى الدجاج والبط والأوز واليمام والحمام والقطا والقمارى والحجل والحبارى والحدأ (جمع حدأة) والصقور والنسور والعقبان والبوم والبوه والبلابل والبراقش والنعام والببغاوات والبلشون (مالك الحزين) والبهرمان والتم والتدرج والنورس والحوصل (البجع) وغيرها .

وهناك أيضاً « طيور الصيد » التى شغف بها العرب كثيراً ولا يزالون ، فهم يقومون للآن بتربيتها واطعامها والعناية بها عناية كبيرة ، كما يدربونها على الصيد ليحصلوا من صيدها على غذاء شهى من لحوم الطيور والحيوانات الأخرى كالأرانب البرية والغزلان وغيرها ، ومن أشهر طيور الصيد عند العرب الصقر والشاهين والبازى والباشق والزرق والبيدق ، وهى جميعاً من جوارح الطير التى يطلقون عليها أحياناً اسم السباع أو الكواسر ، وهى تمتاز بسرعة الطيران وقدرتها على الصيد والقنص ، فتنقض فى سرعة خاطفة على الطيور الأخرى كالعصافير واليمام والحمام والقطا والقمارى والدراج وغيرها ، فإذا وقعت على صيد من هذه الطيور حملته بمخالبها القوية وعادت به إلى صاحبها ، ثم تنطلق بعد ذلك سعياً وراء صيد جديد وهكذا ، ويعتبر البازى من أحب هذه الطيور إلى العرب ، فهو طائر قوى الجناح سريع الطيران ماهر فى الصيد .

أما الثدييات فقد كتب عنها الدميرى أكثر ما كتب لا من حيث عدد المواد فحسب بل من حيث الإفاضة والشرح أيضاً ، وإذا أردنا أن نقدم للقارئ تعريفاً مبسطاً للثدييات فهى « الحيوانات التى تلد وترضع صغارها » ، كما أن المصطلح نفسه يعنى أنها « الحيوانات ذوات الأثداء » ، ومع أن الأغلبية العظمى منها تعيش على سطح الأرض كالإبل والأبقار والأغنام إلا أن البعض منها يطير فى الهواء كالخفافيش (الوطاويط) أو يسبح فى الماء كالحيتان والدلافين أو يعيش فوق الأشجار كالقردة وغيرها ، وللأنثى فى جميع هذه الحيوانات أثداء تنتج الألبان التى تتغذى عليها صغارها .

ويحتوى الكتاب على قائمة طويلة من الثدييات التى وصفها الدميرى بطريقته الشائقة مستعرضاً أهم الصفات والطبائع التى يحتاج إليها القارئ للتعرف عليها أو الإحاطة بمزاياها ، ومن أهم هذه الحيوانات وأشهرها الأسد والنمر والفهد والذئب والثعلب والضبع وابن آوى والفيل والدب والزرافة والحمار الوحشى وفرس البحر والنمس والنسناس والقنفذ والسنجاب واليربوع والفأر والخلد والفنك والكلب والهر والخفاش وكذلك الإبل والخيل والبغال والحمير والضأن والمعز والجواميس والبقر الأهلى والبقر الوحشى (المها والأيل واليحمور والتيتل) والأرانب والغزلان ، ومن الثدييات البحرية الحوت (ويسمى النون أيضاً) والبال (حوت العنبر) والبهار (حوت أبيض) والفاطوس (حوت الحيض) والقندس (كلب الماء) والتخس (الدلفين) وبنات الماء (عرائس البحر) . ومن الطريف أن نجد فى كتاب الدميرى وصفاً لبنات الماء يكاد يكون نموذجاً لكل ما كتب عنها فى كتابات الأقدمين ، فقد وصفها الملاحون القدماء ، وتناقلوا عنها كثيراً من القصص والروايات التى وجدت سبيلها إلى مختلف الكتب القديمة إفرنجية كانت أو عربية ، أما الذكور من هذه المخلوقات فقد وصفها الدميرى فى مادة « إنسان الماء » .

ويفرد الدميرى أربع مواد مختلفة للكلام عن بنى الإنسان وهى « الإنسان » و « الإنس » و « البشر » و « الناس » ، فهو يتكلم عن الإنسان كنوع من الأنواع العديدة للحيوانات التى خلقها الله سبحانه وتعالى ، وبذلك يدخل الدميرى فى زمرة العلماء المحدثين الذين لا يختلفون عنه فى هذا الرأى بل يساندونه بالأدلة

والبراهين ، فالإنسان فى الواقع « حيوان ثدى » ينتمى إلى نوع خاص يطلقون عليه الآن علمياً اسم هومو سيبينز (Homo sapiens) ، ومن الغريب أن الدميرى قد حدد الإنسان تحديداً علمياً دقيقاً فوصفه بأنه « نوع العالم » ، وليس هناك ما هو أبلغ من هذا الوصف ولا أدعى للروية والتفكير ، فالإنسان المعاصر فى جميع الأقطار والبلدان من نوع واحد له من الصفات التشريحية والفسيولوجية ما يميزه غاية التميز عن بقية الأنواع الحيوانية الأخرى ، وهو ما تشير إليه الآية القرآنية الكريمة « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، أما الصفات الظاهرية كالشكل أو اللون أو الحجم فهى صفات عديمة الأهمية لا يمكن أن تتخذ أساساً علمياً للتمييز بين إنسان وإنسان ، وهو ما يهدم آراء المتعصبين من دعاة « التفرقة العنصرية » ، تلك الآراء التى شيدت على التعصب المقيت والتى ليس لها أى أساس علمى تستند إليه .

الحيوانات اللافقارية

لم يكن لهذه الحيوانات نصيب فى معجم الدميرى يعادل ما اختص به الحيوانات الفقارية ، ومع ذلك فهو يحتوى على عدة أنواع للافقاريات وخصوصاً ما كان منها على علاقة وطيدة بالإنسان كالحشرات ، والواقع أن العرب قد عرفوا معظم الحشرات المألوفة وكانوا على بينة من صفاتها وطبائعها ، ولذلك يحتوى معجم الدميرى على كثير من الوصف والإيضاح لمثل هذه الحشرات التى نذكر منها على سبيل المثال الذباب والبعوض (الناموس) والقمل والبق والبراغيث والجراد والجنادب (ضرب من الجراد) والعصارى (نوع من الجراد) والنمل والذر (النمل الأحمر الصغير) والنحل والزنابير ، وكذلك الصرصر (الصرصار) والجدجد (صرار الليل) والجعل (الجعران) والخنفساء والدعسوقة (دويبة كالخنفساء) والسوس والعتة ، وهناك إلى جانب الحشرات قليل من المفصليات الأخرى كالعنكبوت والعقرب والقراد والحلم (القراد العظيم) والسرطان وغيرها .

أما الديدان — ولها الآن أهمية قصوى فى عالم اللافقاريات وخصوصاً الديدان الطفيلية — فلم يكن لها تحديد واضح فى معجم الدميرى ، كما لم يكن لها مثل هذا التحديد فى أى مؤلف آخر يرجع إلى هذا التاريخ ، ولذلك يذكر الدميرى أن « الدود أنواع كثيرة يدخل فيها الأساريع (ديدان البقول) والحلم والأرضة ودود الخل والزبل ودود الفاكهة ودود القز والدود الأخضر الذى يوجد فى شجر الصنوبر ودود البطن » ، ومن ذلك نرى أن هناك خلطاً واضحاً بين الديدان الحقيقية ويرقانات الحشرات (وهى دودية الشكل) ، بل بينها وبين بعض المفصليات الأخرى بخلاف الحشرات . أما العلق (وهو من الديدان الحلقية) فقد حدده الدميرى تحديداً واضحاً حيث وصفه بأنه « دود أسود وأحمر يكون بالماء ، يعلق بالبدن ويمص الدم ، وهو من أدوية الحلق والأورام الدموية لامتصاصه الدم الغالب على الإنسان » . وهناك من اللافقاريات الأخرى بعض الحيوانات الرخوية ومنها الودع والحلزون والدنيلس (محار صغير يؤكل) والصدف (غلاف اللؤلؤ) .

نماذج من الوصف والقصص

كتب الدميرى فى وصف النمل ما يلى :

النمل معروف ، الواحدة نملة والجمع نمال ، وأرض نملة ذات نمل ، وطعام منمول إذا أصابه النمل ، والنملة بالضم النميمة ، وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قوائمها ، والنمل عظيم الحيلة فى طلب الرزق ، فاذا وجد شيئاً أنذر الباقين ليأتوا إليه ، ويقال إنما يفعل ذلك منها رؤساؤها ، ومن طبعه أنه يحتكر

قوته من زمن الصيف لزمن الشتاء ، وله فى الاحتكار من الحيل ما أنه إذا احتكر ما يخاف إنباته قسمه نصفين وإذا خاف العفن على الحب أخرجه إلى ظاهر الأرض ونشره ، وأكثر ما يفعل ذلك ليلا فى ضوء القمر ، والنمل شديد الشم ، ومن أسباب هلاكه نبات أجنحته ، فاذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير ، لأنها تصيدها فى حال طيرانها ، وهو يحفر قريته بقوائمه وهى ست ، فاذا حفرها جعل فيها تعاريج لئلا يجرى إليها ماء المطر ، وربما اتخذ قرية فوق قرية بسبب ذلك ، وإنما يفعل ذلك خوفاً على ما يدخره من البلل ، وليس فى الحيوان ما يحمل ضعف بدنه مراراً غيره ، ولا يكون عمره أكثر من سنة ، ومن عجائبه اتخاذ القرية تحت الأرض ، وفيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات معلقة يملؤها حبوباً وذخائر للشتاء ، ومنه ما يسمى « الذر الفارسى » وهو من النمل بمنزلة الزنابير من النحل ، ومنه أيضاً ما يسمى « بنمل الأسد » لأن مقدمه يشبه وجه الأسد ومؤخره يشبه النمل .

وكان مما كتبه عن الخفاش ما يأتى :

الخفاش واحد الخفافيش التى تطير فى الليل ، وهو غريب الشكل والوصف ، والخفش صغر العين وضيق البصر ، قال البطليموسى الخفاش له أربعة أسماء خفاش وخشاف وخطاف ووطواط ، وقال قوم الخفاش الصغير والوطواط الكبير ، وهو لا يبصر فى ضوء القمر ولا فى ضوء النهار ، ولما كان لا يبصر نهاراً التمس الوقت الذى لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء ، وهو قريب غروب الشمس لأنه وقت هيجان البعوض ، فإن البعوض يخرج ذلك الوقت يطلب قوته وهو دماء الحيوان ، والخفاش يخرج طالباً للطعم ، فيقع طالب رزق على طالب رزق ، فسبحان الحكيم ، والخفاش ليس هو من الطير فى شىء ، فإنه ذو أذنين وأسنان وخصيتين ومنقار ، ويحيض ويطهر ، ويبول كما تبول ذوات الأربع ، ويرضع ولده ، ولا ريش له ، وهو شديد الطيران سريع التقلب ، يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه ، وهو مع ذلك موصوف بطول العمر فيقال إنه أطول عمراً من النسر ومن حمار الوحش ، وتلد أنثاه ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وليس فى الحيوان ما يحمل ولده غيره والقرد والإنسان ، ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه ، وذلك من حنوه وإشفاقه عليه ، وربما أرضعت الأنثى ولدها وهى طائرة .

وهاك قصة طريفة من القصص العجيبة التى يحتوى عليها الكتاب ، وهى من النوع الذى يروى على ألسنة الحيوانات :

« قالوا إن الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب (وكنيته أبو حسل)

فقالت الأرنب : يا أبا حسل

قال : سميعا دعوت

قالت : أتيناك لنختصم إليك .

قال : عادلا حكيماً .

قالت : فاخرج إلينا .

قال : فى بيته يؤتى الحكم .

قالت : إنى وجدت تمرة .

قال : حلوة فكليها .

قالت : فاختلسها الثعلب .

قال : لنفسه بغى الخير .

قالت : فلطمته .

قال : بحقك أخذت .

قالت : فلطمنى .

قال : حر انتصر لنفسه .

قالت : فاقض بيننا .

قال : قد قضيت .

فذهبت أقواله كلها أمثالا » .

نماذج من الشعر

لم يقتصر الشعر العربى على التشبيب والغزل ، أو الحنين إلى الديار والأطلال ، أو المديح للحكام والأمراء أو التغنى بمحاسن الطبيعة وما بها من بديع الخلق وآيات الجمال ، أو التفاخر بالأنساب وكريم الخصال كالشجاعة والجود وغيرهما ، أو الرثاء الذى كان يتبارى فيه أعاظم الشعراء أو غير ذلك من ضروب الشعر التى لا تقع تحت حصر ، بل تعداها إلى وصف مختلف أنواع الحيوان التى عرفها الأعرابى فى الصحراء أو شاهدها فى المدائن والأمصار ، ومن هذه الأشعار ما يصف الحيوان أو يسجل شيئاً من عاداته وطبائعه ، وقد استشهد الدميرى بطائفة كبيرة من هذه الأشعار التى تزدان بها معظم صفحات الكتاب ، ونحن نقتطف البعض منها فيما يلى :

وكم طيب يفوح ولا كمسك
وكم طـير يطير ولا كباز

وفيه الإشارة واضحة إلى سرعة طيران البازى .

بغات الطـير أكثرها فراخا
وأم الصقـر مقـلات نزور

ومنه يستدل على أن الحيوانات عديمة الفائدة تكون كثيرة النتاج .

وبلبـل الدوح فصيح على الا
أيـكة والشحرور تمتـام

ويدل على تقدير الشعراء لأصوات البلابل وتغريدها .

لا تحقرن صغـيراً فى عداوته
إن البعوضة تدمى مقلة الأسـد

وهو يعبر عن لسع البعوض وامتصاصه لدماء مختلف أنواع الحيوان .

من استنام إلى الأشرار نام وفى
قميصه منهم صـل وثعبـان

وفيه يضع الشاعر الأشرار من الناس فى مرتبة الأفاعى والثعابين .

وإذا امرؤ لسعتـه أفعى مرة
تركته حـين يجرّ حبل يفرق

وهو يعبر عن خشية الأعراب من لسع الأفاعى وخطورتهـا .

يا قصر جمع فيه الشوم واللوم
متى يعشّش فى أركانك البوم
يوم يعشّش فيك البوم من فرحى
أكون أول ما ينعيك مرغوم

وقد كتب هذا الشعر أعرابى جائع على قصر المأمون يعبر فيه عن حقده على الترف الموجود بداخل هذا القصر وهو لا يجد ما يتبلغ به من القوت الضرورى .

وتجتنب الأسـود ورود مـاء
إذا كان الكلاب ولغن فيـه

وهو عن تعفف الأسد وعدم اقترابه من فرائس غـيره .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى مربض المستأسد الضارى

وفيه دلالة على جبن الذئاب وخبثها .

هذا هو معجم الدميرى الذى كتبه مؤلفه منذ ما يقرب من خمسة قرون شاهد حق وعدل على ما كان يمتاز به كتابنا الأقدمون من الدقة والإجادة فى مختلف ألوان العلم والمعرفة ، وذلك فى وقت كان ينتشر فيه الجهل فى معظم البلاد الأوروبية ، وهو بعض من تراثنا القديم الغابر الذى أفاد الحضارة البشرية فى عديد من الميادين ، ولا يسعنا ونحن فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الأمة العربية إلا أن نبعث مثل هذا التراث المجيد ليكون حافزاً على الإسهام بنصيب أوفر فى التقدم العلمى العالمى الذى يتطور فى الوقت الحاضر تطوراً مذهلا ، إذ لا بد لنا مع الركب من أن نسير .